من أوراق الرئيس (6)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة.

لـم يحتمل عبد النــاصر كل هذا العذاب!

للروس طريقة خاصة في تعلم الدب كيف يرقص على صفيح ساخن أثناء عزف الموسيقى.. وهي طريقة ناجحة مع حيوانات كثيرة. ولكن لم يكن من السهل ترويض القيادة المصرية على الرقص بمجرد أن تعزف الموسيقى أي لحن.. ولذلك يروى الرئيس السادات في " أوراقه " وللأمانة التاريخية، كيف تعذب الرئيس جمال عبد الناصر ذهابا وإيابا، وكيف أن السوفيت أعادوه عشرين عاما إلى الوراء من شدة الفرح، ثم ألقوا عليه عشرين عاما أخرى من شدة الحزن...

غير أن الرئيس السدات قرر أن يمسك، حرصا على المصلحة الوطنية العليا، عن ذكر تفاصيل ما دار في الكرملين يوم بلغ اليأس بجمال عبد الناصر منتهاه...

على الرغم من هذه الحالة النفسية الرهيبة التي نعانيها على مستوى القيادة في مصــر، كان علينا أيضا أن نبقى على الروح المعنوية عالية في الجيش الذي يتدرب باستمرار وينتظــر السلاح، وأن نؤكد للشعب الذي طحنته الهزيمة أننا جادون.. وفــي نفــس الوقــت أن نواجــه الغطرسة الإسرائيلية ورعونة القيادة عندهم... ونحن نعلم علم اليقين أنهم متفوقون عســكريا. وإذا كنا نحن متفوقين عليهم بالمدفعية دائما، فلديهم الطائرات التي بدأوا يستخدمونها بدلا مــن المدفعية...

وقد زادت غطرسة اليهود وعربدتهم في سمائنا. وكان ذلك نوعا من العذاب والهــوان ينزل على رؤوسنا من السماء... والروس لا يساعدوننا على مواجهة هذا التحدي العنيف لنــا ولكبريائنا وآمالنا في أن نكون في وضع أحسن.

وإذا كانت السماوات المفتوحة تعبيرا مخيفا عند العسكريين، فإن الليالي القمريــة أشــد بشاعة من ذلك.. فوسط المدافع والدبابات والصواريخ وانتظار النار نطلقها وتنطلق علينا مــن الصعب أن يكون الإنسان شاعراً رومانسياً يتغزل في السماء المفتوحة والليالي القمريــة التــي

تنطلق منها طائرات الهليكوبتر من رأس محمد إلى الصعيد .. تلقى باليهود وبالمتفجرات على القناطر والسدود وأعمدة الكهرباء...

ولكن في ذلك الوقت صدر بيان 30 مارس وتم الاستفتاء عليه. وكان ذلك تجميعا للناس حول خطة عمل. وتوحيدا للآمال والأحلام.. فلا يبقى أمامنا إلا أن نعمل. والعمل كله من أجل التحرير واسترداد كرامة الشعب الجريح.

وسافر جمال عبد الناصر إلى مصلحة اسخلطوبو للعلاج، وبقى بعض الوقت، وشفي من أوجاعه. وكان ذلك الشفاء فألاً حسناً. وشفي البلد أيضا من بعض أوجاعه. وكان علينا أن نواجه العدو الذي أعطته الليالي القمرية ستاراً فضياً لا يمكن أن يكون شاعرياً، للعربدة في سماء مصر وفي الصعيد. وكانت هذه الأعمال الإجرامية خطوة عنيفة فى حرب الاستنزاف. وأعترف للتاريخ بأنها هزت النفوس، وزعزعت الأيدي على السلاح. فنحن بشر. ولكنها ضاعفت إصرارنا على التحدي والتصدي..

وأول ما قام به اليهود في سماواتنا المفتوحة وليالينا القمرية الصافية أن نزلوا عند محطة الكهرباء في نجح حمادي وكوبرى قنا وقناطر نجع حمادي أيضاً. والمسافة التى تقطعها الطائرة اليهودية من رأس محمد عند رأس مثلث شبه جزيرة سيناء إلى قنا صغيرة جداً، ربما لا يراها الإنسان إذا نظر إلى ومن هنا كانت مثل هذه العمليات سهلة التنفيذ والإخفاء أيضاً.

ومعروف لنا وللعالم كله ما حدث عندما أنزلوا بعض رجالهم عند محطة نجع حمادي التي تقع على أطراف المزارع والصحراء وهناك ضربوا عشرة محولات لكهرباء السد العالى. هذه المحولات على عربات سكك حديدية. وقد ذهبت فى اليوم التالي مباشرة ورأيت بنفسي ما حدث.. ثم إنهم أيضا كوبري قنا وكان تحت الإنشاء... ثم ضربوا قناطر نجع حمادي. وهي إحدى ثلاث قناطر في الوجه القبلي:قناطر إدفوا ونجع حمادي وأسيوط. وكل واحدة تتحكم فى رى نصف مليون فدان. وكل هذا معروف ومرصود في العالم كله، وكانت الإصابات في هذه المنشآت المعمارية الهندسية سطحية وطفيفة لحسن حظنا وسوء بختهم خصوصا أنهم بعد أن قاموا بأعمالهم المسرحية التليفزيونية أبلغت طائراتهم قيادتهم أن مصر كلها غرقت. وأعلنت القيادة في الإذاعة أن الأرض قد غطتها المياه...

و أنهم هم الذين أتوا بالطوفان... وهذا هو أحد أحلام اليهود فهم لم ينسوا ولن ينسوا أن مصر كانت تتغنى في أوج المد القومي التحرري: في البحر حندفنكم .. أي أن المصريين كانوا

يمنون أنفسهم بدفن القوات اليهودية في البحر وكان اليهود يمنون أنفسهم بأنهم هم الذين سيدفنون المصريين في البحر. تماماً كما حدث أيام موسى عليه السلام...

لقد ذكرت قبل ذلك أن بعض أدبائهم تخيل أن السد العالي قد نسفه اليهود فغرقت مصر.

و بعدها يقوم اليهود بدور نوح عليه السلام فينقذون العالم كله بسفينتهم .. وطبعا لن ينقذوا مصر – إلى آخر أحلامهم التى يتوهمون دائما أنهم اقتربوا منها... وأن ضرب القناطر و الكباري سوف يكون خطوة في الطريق إلى إغراق مصر.! وكان من الطبيعي أن نعاود مناقشة الموقف بأكمله. هل نمضى في حرب الاستنزاف؟ . هل نظل نضرب بالمدفعية استحكامات العدو؟ وبالصواريخ طائراته إذا جاءت عالية، ولا قدرة لنا على مواجهة الطيران المنخفض؟ هل نظل نحارب بشرف وهم يحاربون بسفالة وخسة؟ نضرب لهم العسكريين ويتجهون هم إلى ضرب المدنيين؟

وللتاريخ أعترف بأن الذي حدث في حرب الاستنزاف في آخر1968 وأوائل 1969 كان له أعمق الأثر في نفسي... بل أن هذه المشاعل المضيئة التي كانت تلقيها الطائرات اليهودية على خطوطنا فتجعل الليل نهاراً قد أضاءت لي أشياء كثيرة.. بل إنني أقول للتاريخ أن قراري الذي اتخذته يوم 8 يوليو سنة 1972 بطرد الخبراء السوفيت قد ولد في ذلك الوقت ... ويومها لم يكن يخطر على بال أحد أن جمال عبد الناصر سوف يموت في سبتمبر 1970 وسوف أتولى الحكم من بعده.. ولكن أعترف أن عقلي اشتغل بسرعة و أيقنت تماما أن حالنا في الحضيض ... وأننا لا يمكن لأي سبب، أن نترك الصعيد عاريا ، ونظل نقذف العدو بالنار في الشمال وأكثر بلادنا بلا حماية ولا وقاية. وفي ذلك الوقت قال فلاسفة الهزيمة وبؤر مراكز القوى السامة: يجب أن نمضي في حرب الاستنزاف حتى النهاية لأنها مسألة كرامة...

يعنى أنه من الكرامة عندهم أن نحارب في الشمال، وأن نتركهم يغرقون مصر في الجنوب... أي أنه مهم جداً عند هؤلاء أن نفرقع القنابل والمدافع على القناة ونشعلها ناراً،إلى أن تجيء مياه السد العالي والخزانات وتطفىء هذه النيران. مأساة لو فعلنا ذلك. أو إذا ظللنا باسم الكرامة الزائفة نترك أهدافنا الحيوية بلا حماية من ألاعيب العدو... وأين نذهب من التاريخ إذا نجح العدو في إغراق نصف مليون فدان أو مليون فدان... إن مصر لا تقوى على احتمال الغرق بعد الهزيمة، والجوع بعد الهوان... صحيح أن شيئاً من ذلك لم يحصل. ولكن ماذا لو حصل؟ إنني أذكر أنه في سنة 1913 لم يأت الفيضان بماء يكفي لري مصر. فزرع المصريون نصف الأرض. ولكن أحداً لم يمت من الجوع في ذلك الوقت. لأن عد سكان مصر

كانوا سبعة ملايين... ولكن الآن ونحن 35 مليوناً، ومساحة الأرض لم تعد تكفي لهذه الأفواه... كارثة كبرى، لو حدث ما تمناه اليهود، وما تخوفنا نحن من وقوعه..

ولكن الروس لم يمكنونا من الدفاع عن أهدافنا الحيوية.. فما الذي يمكن عمله بعد ذلك؟

وكنا قد أحصينا المراكز الحيوية في مصر التي يجب أعطاؤها الأولوية في الدفاع عنها، فوجدناها ألفى هدف. وأنا أذكر هذا الرقم جيدا، فقد كان أحد همومي الكبرى أن أدافع عنها جيداً قبل أن أبدأ معركة أكتوبر 73.

ومازالت حرب الاستنزاف مستمرة. ضرب من هنا، غارة من هناك. مرة تشد ومرة تخف حدتها. ولكن الحرب على الجانبين لم تتوقف. أعصاب مشدودة طبعا، انتظار للفرج... والفرج لا يجيء من روسيا ببطاريات صورايخ للدفاع عن هذه الأهداف الاستراتيجية.

وظلت مصر في هذا العناء والدوخة مع السوفيت حتى سنة 1970 عندما قبل جمال عبد الناصر مبادرة روجرز أمام القادة السوفيت في الكرملين...

وقبل أن أمضي إلى سنة 1970 لابد أن أتوقف لأبدي بعض الملاحظات التي أراها ضرورية على حرب الاستنزاف وعلى ردود الفعل العامة لذلك..

ولو كان هذا التاريخ الذي أرويه موجها للعكسريين، وحدهم لكان من السهل جداً أن أشير إلى ذلك في سطور. ولكني أتوجه به إلى شعبي وإلى الذين يقرأون التاريخ من الشباب لكي يتأملوا حتى يعرفوا الحقيقة. فهذه الحقيقة، كانت وما تزال وسوف تبقى هدفي، من أجل مصر وسلامة مصر ورخاء مصر. وسوف تجيء لحظات كثيرة أدوس فيها على كبريائي، وأبتلع كرامتي من أجل مصر. ومن هنا كانت المصارحة والصدق: أسلوباً وغاية من كل الذي أقول... من هذه الملاحظات أن حرب الاستنزاف هذه تستهلك كميات هائلة من الذخيرة. ومن الملاحظات أيضاً أنها نوع من "هز" الموقف ولكنها لا تحركه. وهي تأكيد مستمر للعدو ولأنفسنا أيضا أننا في حالة صحو تام.....

وإذا كنا وكان العدو في حالة من الصحو فإن هذا الصحو أقرب إلى الأرق. وإذا كان الأرق طويلا هكذا، فمن المؤكد إن الإرهاق هو النتيجة الطبيعية لذلك... وليس الإرهاق حالة تزول، ولكنه حالة لا تزول...

فإذا أضفنا إلى ذلك ما فعله اليهود في معركة الجزيرة الخضراء وما فعلناه نحن وجدنا موقفاً منعشاً، أي أنه موقف يغيرنا بالاستمرار، بل يدفعنا في الطريق إلى الاستمرار في هذه

الحرب "القاعدة" أو الحرب "الجالسة" على الضفة الشرقية للقناة.... لأننا نضرب ونحن جالسون، واليهود يضربون طائرين في الجنوب يفعلون ما يحلو لهم... وكان ضربنا اليهود في الجزيرة الخضراء بعنف. وكل ذلك معروف لنا وللعالم كله.. وكان من الطبيعي أن يستمر اليهود الدخول والخروج والسخرية بنا أمام العالم... فتمادوا بعد ذلك عندما ضربوا أبو زعبل ومدرسة بحر البقر ودخلوا إلى الإسكندرية... وكان في استطاعتهم في ذلك الوقت أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك. ولم يتوقف هذا كله إلا بعد أن أمدنا الروس بصواريخ سام 3...

ولكن تكن عندنا "خطوط" ذخيرة أو "وحدات نارية" كما يقول العسكريون الآن. ويظهر أن هذا هو أسلوب الدول الكبرى. فقد قرأت مناقشة الكنيست الإسرائيلي ووجدت موسى ديان يشكو من أن أمريكا لم تمدهم بالسلاح المطلوب. طبعا هو يشكو أيضاً من أن السلاح أقل مما يحتاج إليه... ولكن هناك فارقاً ضخماً بين موقف أمريكا مع إسرائيل وموقف روسيا معنا... فإذا أمريكا أعطت اليهود 99 مدفعاً وكان اليهود قد طلبوا مائة مدفع فإنهم يصرخون ... ولكن إذا طلبنا من الروس 99 مدفعاً وأعطونا تسعة مدافع فقط وصرخنا، اندهش الروس لذلك... إذ كيف نصرخ ولا نصبر عليهم سنة أو سنتين ليكتمل هذا العدد... وفي نفس الوقت يكون اليهود قد حصلوا من أمريكا على أضعاف هذا العدد من الأسلحة الأكثر تطوراً!

ولكن الدول الكبرى تعطى بحساب. وإن كان هذا "الحساب" يختلف من دولة إلى دولة...

وفي ذلك الوقت تحرك الروس. وقالوا لجمال عبد الناصر أن يقوم بعملية "تبريد" عامة... أما "التبريد" المطلوب فهو وقف حرب الاستنزاف قليلا... أي مطلوب من جمال عبد الناصر أن ينهي هذه الحالة اتلي لا هي حرب ولا هي سلم... وأن يتفجر على اليهود على الضفة الأخرى من أرضه. ويسكت. وأن يراهم يدخلون سماء مصر يفعلون بالشالما والجنوب ما يحلو لهم. ويسكت. وأن يرى السلاح يتدفق على اليهود من أمريكا ويسكت.

وأظن أن موسى ديان هو الذي قال أن وجود اليهود على الضفة الغربية، على مرأى ومسمع من المصريين سوف يصيبهم بهزات كهربية. بصواعق كهربية. وأن المصريين لا يمكن أن يعتادوا على هذا الهوان. ولذلك سوف تؤدي صواعق الكراهية والغيظ والهوان إلى ثورة الشعب على حكامه وإسقاط النظام القائم في مصر. ولذلك كان همي الأول أن أدفع باليهود إلى الوراء وأفتح القناة وأرد لمصر كرامتها، وبذلك تتأجج عند الناس مشاعر أخرى غير الهوان والهزيمة والعار والندم.

بل إن هذا الموقف دفع عدداً من الكتاب المصريين يقولون: كيف نترك أولادنا حملة المؤهلات يجلسون هناك على الرمال تحت الشمس.... دون عمل؟

شيء غريب: كأن أداء الواجب الوطني والدفاع عن مصر ليس عملاً؟ أو كأن الذي يحمل مؤهلات يجب إعفاؤه من هذا الواجب المقدس؟ وكأن الدفاع عن مصر خاص فقط بالذين لم يتعلموا؟ أنه أسلوب عجيب ولا أعرف من أين أتوا به... أو كيف نشروه على الناس. مع أن الدول الأخرى، شرقا وغربا قد دخل شبابها الحروب. ولا يوجد واحد لا يضع في بيته أو في جيبه صورة له وقد ارتدى ملابس القتال. لأن هذه الملابس شرف والدفاع عن الوطن دين. وقد وجهت لوما عنيفا إلى هؤلاء الكتاب الذي يدعون إلى التخاذل والهزيمة واليأس والذين يفرقون بين الذي يحمل مؤهلا والذي لا يحمل مؤهلا في الدفاع عن مصر وشرف مصر. أن الحرب هي أكبر بوتقة لتذويب ما بين الناس من خلاف في الرأي أو في الطبقة أو في اللون. فكما أن النصر شرف عام فالهزيمة عار عام. ونحن جميعا أمام النصر أو الشهادة سواء – هذا ما نقوله لرجالنا الشجعان المقاتلين... وأملي ألا يعود كتابنا إلى شيء من ذلك. فقد ذهبت هذه الموجة السوداء المريرة إلى غير رجعة إن شاء الله.. لأن الآن أن نفرش الطريق بالأمل في حياة أفضل وواجب الكاتب أن يدافع بقلمه وعلمه ووجدانه عن مصر. يدفع عنها اليأس ويحميها من الشك. فالكاتب جندي ومهندس وطبيب وشعلة تضيء وتهدي الناس إلى الطريق السوي. هذا واجبه وقدره.

واستنزفتنا حرب الاستنزاف. وتلاشت الذخيرة وراء مدافعنا. وأعترف أن بعض المدافع عندنا تحولت إلى حديد بارد ... لأنه لا توجد خطوط ذخيرة كافية ...ولم يتوقف جمال عبد الناصر ولا أنا بعد وفاته عن طلب المزيد من الذخيرة عن طريق الكوبري الجوي أو الكوبري البحرى ولكن الروس لم يفعلوا شيئا ومات الرجل، ولكن الروس قد التزموا الصمت.. أو يقولون شيئا كان الصمت أفضل منه.

ولم يعد سراً أن أقول مرة أخرى إن الذي طلبته الاستنزاف قد وصلنا عندما بدأت حرب أكتوبر 73 وفى استطاعتك أن تضيف إلى هذه الحقيقة المؤلمة ما شئت من علامات التعجب والاستفهام؟!

اضطرت إلى أن أحصل على أسلحة من سوريا ومن العراق قبل بداية حرب أكتوبر 1973. وسوريا والعراق على ما أقول شهيد. وفي نفس الوقت الذي كانت الذخيرة مكدسة في سوريا كان وراء مدفعي خط ذخيرة واحد، بينما المدفع السوري وراءه من ثمانية إلى أحد عشر

خطأً. لا أحسد ولا أحقد على سوريا. طبعاً لا . إنها دولية شقيقة. وأتمنى لها ولنفسي القوة والمنعة.

ولكن إذا وضعنا التمني جانباً يتبقى هناك شيء هام ، وهو أن يدلنى أحد على معنى هذا كله؟ ما معنى أن تعطي روسيا لسوريا ولا تعطي لمصر. مع أن القضية واحدة. والسلاح الذى نحارب به واحد. وإذا كنا نحن نحارب لأنفسنا، فمن المؤكد أننا نحمل السلاح السوفيتي في مواجهة السلاح الأمريكي.. وإذا انتصر السلاح السوفيتي فهو انتصار لهم ..ثم هذه الوعود التي أغرقونا بها.. والانتظار الطويل والتأكيد المستمر بأن السلاح في الطريق ... إلى آخر ما اعتاد الروس أن يقولوا وما اعتدنا أن نصدقه أو نوهم أنفسنا بأننا نصدقه.. مطلوب أن أجد تفسيرا لهذا الذي يعمله الروس. أن أجد معنى: للإسراف هناك والتقتير هنا... التكدس هناك، والندرة عندنا.. الكوبري الجوي الذي لم يتوقف نزوله في سوريا، والكوبري الذي لم تقم له قائمة بيننا وبين روسيا... ولكني لا أعفي رجالنا العسكريين من المسئولية، كلها أو بعضها.... فمثلا عندما كان لدينا الصاروخ سام 1 و 2 كان لابد أن يطلب رجالنا صواريخ لمواجهة الطيران المنخفض في سنة 1964. ولكنهم لم يفعلوا. أو لعلهم طلبوا. ولم يستجب لهم أحد... أو أن الروس أجابوا بأن هذه الصواريخ التي تواجه الطيران المنخفض لا وجود لها عندهم. وهذه عادة سوفيتية معروفة. فهم يقولون لك، لا يوجد.. مع إن الذي لديهم كثير من كل نوع، ومن كل الأسلحة المتطورة أيضاً. وقد حصل اليهود على صاروخ هوك من الرئيس كيندي ولابد أن الأمريكان، كما ذكرت من قبل في هذه "الأوراق" قد واجهوا الصواريخ السوفيتية التي تواجه الطيران المنخفض. أي أن اليهود لديهم معلومات كافية عن الصواريخ السوفيتية التي جريت تماماً في فيتنام، فإذا أعطاها الروس لنا، لم يكن ذلك مفاجأة تامة لليهود.ولكن من المؤكد أنها سلاح خطير ومخيف. وقد حدث ذلك عندما أعطيت لنا صواريخ الارتفاعات المنخفضة أو توقفت العربدة والصعلكة الجوية اليهودية في سماوات مصر..

ولم نحصل على صواريخ سام 3 إلا في سنة 1970 بعد غارات اليهود على أبو زعبل وبحر البقر. وهذه الصواريخ أوقفت ضرب اليهود للخط من بورسعيد إلى السويس تماما. وكان اليهود قد اعتادوا على الإغارة بمئات الطائرات من الشروق حتى الغروب. وأكرر مرة أخرى أنني لا ألوم المستشارين العسكريين السوفيت على أنهم لم يبصرونا بهذا الخطر الحقيقي. وإنما ألوم العسكريين المصريين الذين لم يبادروا بطلب هذه الصواريخ... وإن كنت أجد بعض العذر للعسكريين المصريين الذين تعلموا العقيدة العسكرية السوفيتية. فالذين ذهبوا إلى روسيا ليتعلموا

لم يحصلوا على كل شيء. ولا حتى على القدر المعقول المطلوب من التكنولوجيا الحديثة. فالروس يعلمونهم. ويوقفونهم عند حد معين. ويقولون لهم: هنا وكفى!

وفي نفس الوقت يكون الروس معقولين جداً عندما يقولون لنا بعد ذلك: ليس في استطاعتكم استيعاب الأسلحة الحديثة بسرعة.

لماذا؟ لأن رجالنا لم يتعلموا هناك بدرجة كافية.

ويكون الرد المنطقي: ولكن لماذا لم تعلموهم بدرجة كافية حتى يسهل عليهم استيعاب أسلحتكم الحديثة. وبذلك نختصر الوقت... وأهم من ذلك يتمكن رجالنا من استخدام السلاح السوفيتي، والانتصار به وهذا يخدمكم أكثر مما يخدمنا.

ويكون ردهم عادة: معقول جداً. وهذا ما سوف نعمله. ولا يعلمون شيئا ... أي لا يتركون أبناءنا يتعلمون بما فيه الكفاية، ولا يبعثون بالسلاح الضروري لذلك ويتجدد الموقف المعروف بيننا وبينهم: نحن نطلب وهم لا يردون. أو نحن نطلب ثم هم يردون. وإذا ردوا وعدوا. وإذا وعدوا وفوا بالوعد. وإذا وفوا بالوعد، كان ذلك بعد فوات الأوان؟!

ولكن لم يفقد جمال عبد الناصر الأمل في أن تتحسن هذه العلاقة بين مصر وروسيا. وإن كان قد شرب المر على أيديهم عاماً بعد عام. وفي أواخر سنة 1969 عقد جمال بد الناصر مؤتمرا عسكريا لم يحضره من السياسيين غيره وغيري. وادارت مناقشات في هذا المؤتمر. وحللنا الموقف. وأدرناه على جميع الوجوه وكان يسيطر علينا جميعا أن إسرائيل سوف تتمادى في استخدامها الطيران إلى غير مدى وإلى غير حد.

ووصلنا إلى رأي واحد، واقتناع واحد هو أن أذهب إلى الاتحاد السوفيتي أطلب سام 3. ووافق السوفيت على ذلك. وبسرعة أرسلنا أطقم هذه الصواريخ للتدريب على أن تعود جاهزة للعمل في أغسطس سنة 1970. وكانت هذه خطوة هامة. لا شك.

وقبل أن يسافر جمال عبد الناصر في 30 ديسمبر 1969 إلى مؤتمر القمة في الرباط في نفس اليوم حلفت اليمين كتائب لرئيس لجمهورية. وكان ذلك قبل أن يستقل طائرته بخمس دقائق.

وفي يوم 25 ديسمبر، وهو عيد ميلادي كنت في ميت أبو الكوم. فقد اعتدت أن أقضي هذا اليوم بين أهلي من الفلاحين وفي قلب البيئة التي ولدت فيها. ولم أكد أستقر في مقعدي حتى جاء تليفون يصرخ قائلا: الخط .. والنار السلاح الطيران اليهودي قد أغار على الخط من

بورسعيد حتى السويس. من الثامنة صباحا. وقد أحصيت الطائرات المغيرة فبلغت 180 طائرة. وطائراتهم أبعد مدى من ورائها أسراب أخرى وهكذا. وظلت النار مشتعلة حتى الرابعة مساء. وكانت خسائرنا ضئيلة جدا لم تتجاوز أربعة وراء استحكامات منيعة. وجاءت الطائرات اليهودية تلقى نيرانها على الرمال وعلى الاستحكامات. وكان هدف اليهود واضحا هو ضرب بطاريات الصواريخ، فإذا أصابوها انفتح لهم كل شيء: السماء والأرض معا!.

وقد أصاب اليهود في ذلك اليوم عددا كبيرا من بطاريات سام 1 و 2. وتناثرت قنابلهم شديدة الانفجار وقنابلهم الزمنية، التي ظلت تفرقع على فترات مختلفة. وبذلك يتحقق لهم ما يريدون وهو أن يظل النار والدمار والانفجار بلا توقف... لا أنسى ذلك اليوم من عمري.

وفي مواجهة هذا الموقف المفاجيء العنيف أصدرت أمرا للمهندسين ورجال الصواريخ بسحب كل الصواريخ إلى الوراء. وقد صنع سلاح المهندسين المعجزات وسط الغارات العنيفة. وقبل أول ضوء من يوم 26 يناير سنة 1970 كانت جميع البطاريات سحبت إلى الوراء، وفي أماكن خفية. ولما جاء اليهود ليقضوا على ما تبقى من الصواريخ، كانت غاراتهم تنصب على لا شيء!.

وقد أكتشفنا من هذه الغارات علينا أسلوب اليهود في القتال. فهم "كتابيون" – إذا صح هذا التعبير. أي أنهم يطبقون قواعد الكتاب العسكري حرفيا. أي أنهم محدود الأهداف. يتدربون على الهدف ويخرجون إليه لضربه. وإذا وجدوا أنهم أخطأوا في تطبيق الكتاب أو الخطة المحددة عندهم، عادوا بسرعة. ولكنهم في هذه المرة وقعوا ضحايا لمدفعيتنا التي توارت وراء الأشجار وانطلقت عليهم نارا ووبالا... ففروا هاربين.. وكلما جددوا الهجوم وفقا لخطة محددة موضوعة، وجدوا أنهم ضحايا كمين جديد.. فأصابتهم مدفعيتنا وهربوا بما تبقى لديهم من طائرات..

ولما أيقن اليهود أن الموقف قد تغير تماما على الخط في الشمال، اتجهوا إلى أساليب بهلوانية أخرى على البحر الأحمر... فانقضوا على محطة الرادار وحملوها بها– وهي غلطة أهمال حقيقية– أي غلطتنا نحن.

ولما عاد جمال عبد الناصر من مؤتمر الرباط سافر إلى السودان ليشارك في عيد الاستقلال في أول يناير. فوقف يلقى خطبة في هذه المناسبة. يحيي شعب السودان ويمجده. ويجدد الصمود العربي ضد القوى الإمبريالية. ثم اتجه إلى الرد على رئيس الأركان الإسرائيلي الذي كان قد أعلن يوم رأس السنة أنه في العام القادم سوف يخضع الشعب المصري تماما...

فقد حدث يوم رأس السنة أن وقف رئيس الأركان الإسرائيلي في الكلية الحربية يقول: لقد انتهت مصر في 67 وقضينا عليها تماما بحرب الاستنزاف. أما في سنة 1970 فسوف يكون "الشعب" المصري طوع أيدينا...

أي أنه يريد أن يقول: أننا إذا كنا قد هزمنا الجيش المصري، فلم يبق أمامنا ألا أن نهزم إرادة الجيش وإرادة الشعب المصري...

ومعنى ذلك أن اليهود مؤمنون بأن "روح" الشعب المصري لم تنهزم بعد. وهذا هو الهدف المنشود عندهم. وقد تلقف جمال عبد الناصر هذا المعنى. وأكد أنهم لن يهزموا إرادة الشعب المصري مهما تضاعفت غاراتهم قبل ذلك أو بعد ذلك ... وقد زاد الشعور العام في مصر سواء، وإن كان الشعور العالمي صار ضد إسرائيل... فلم تكن غاراتها على الأهداف العسكرية وإنما كانت على عمال أبو زعبل وعلى أطفال بحر البقر.

وأذكر أن جمال عبد الناصر كان في القناطر الخيرية وكانت الأنفلونزا قد اشتدت عليه. وقال لي يومها: إن الذي توقعناه قد حدث. أن اليهود قد غاروا ودخلوا وقتلوا وخرجوا. وعادوا... ولا أحد يستطيع أن يوقفهم. ثم إنهم أعلنوا وصلوهم إلى دهشور على مدى ربع ساعة من القاهرة. وهذا صحيح.

وطلب مني جمال عبد الناصر أن أتصل بالسفير السوفيتي. ووجدت السفير السوفيتي فينوجرادوف في المحلة الكبرى مع وفد برلماني سوفيتي. اتصلت به لكي يجيء فورا. ومعه كبير الخبراء العسكريين. وجاء الرجل. وكنا أربعة: جمال عبد الناصر والسفير السوفيتي وكبير الخبراء وأنا. وجلسنا في القناطر الخيرية. وطلب إليه جمال عبد الناصر أن يتصل بالقادة السوفيت وأن يستوضحهم عما تم بشأن ما اتفقوا معي عليه في ديسمبر– أي الاتفاق الخاص بإرسال صواريخ سام 3، ثم يسألهم عن مصير الأطقم المصرية التي سافرت يوم أول يناير أي من عشرين يوما.

ثم كلفه جمال عبد الناصر أن يخبر القادة السوفيت رغبته في أن يقوم بزيارة سرية لموسكو. فالموقف لا يحتمل التأجيل أو الانتظار.

ولم يكن السفير السوفيتي إلى أن يوضح له جمال عبد الناصر أكثر من ذلك. فالغارات اليهودية واضحة. والضحايا المصريون كثيرون. والنار والحرائق والدخان والقنابل والشك والقرف واليأس وروح الهزيمة والضيق من الروس ومن الروس ومن أسلوبهم العجيب في

التعامل معنا، قد عقد كل شيء.. وملأ السماء سحابا، والأرض غبارا، والنفوس شكا... ويجب أن نفعل شيئا لكي يفعلوا هم أي شيء.

وكان السفير السوفيتي فينوجرادوف من الدبلوماسيين الأكفاء، وكان صديقا للجنرال ديجول، لأنه عمل سفيرا لبلاده في باريس 12 عاما. وكانت له صلات كثيرة وعميقة. ولابد أن الروس قد اختاروه لمصر، لأهمية الوضع في مصر وفي الشرق الأوسط. وكان هذا الرجل حريصا على أن يخدم القضية من كل قلبه. ولكن ما الذي يستطيعه أي فرد سوفيتي، أيا كان وزنه وموقعه، مع القيادة السوفيتية. أن الفرد لا رأي له، وإنما القيادة العليا الغامضة الشكل والرأي، هي التي لها الرأي!

وذهب فينجرادوف وأبرق للقيادة بما قاله جمال عبد الناصر. وجاء الرد بالترحيب بهذه الزيارة وبعدها بأربعة أيام سافر جمال عبد الناصر سرا إلى موسكو.

وذهب جمال عبد الناصر إلى موسكو والتقى بالقادة السوفيت. ولم يحن الوقت بعد لكي أروي تفاصيل ما حدث. وكل ما حث سمعته من جمال عبد الناصر شخصيا ولست أرى من المصلحة الوطنية العليا رواية شيء من ذلك الآن.. فالذي قاله جمال عبد الناصر للقيادة السوفيتية يدل على منتهى اليأس والقرف، اليأس منهم والقرف من أسلوبهم... بل ولا أكون مبالغا، وأنا أعرف بالضبط وزن كل حرف مما أقول، إن جمال عبد الناصر قد بلغ أقصى درجات اليأس من الحياة نفسها. من دوره كزعيم لبلده.

وأرى من واجبي أن أمسك عن الاستطراد في وصف الحالة التي تردى إليها جمال عبد الناصر وكان مريضا جسميا ومهدودا نفسيا، وجريحا وطنيا، وذبيحا قوميا.

وأحس الروس من كلام جمال عبد الناصر أنه صادق وأنه يعني ما يقول. وأنها ستكون طامة كبرى عليهم إذا انتقل جمال عبد الناصر من القول إلى العمل... هنا فقط وافقوا إلى إرسال الأطقم السوفيتية لصواريخ سام 3... وهذه الحالة التي وصل إليها جمال عبد الناصر، مع السوفيت ليست الأولى.. وإنما الأولى كانت يوم فاجأ الروس بقبوله لمبادرة روجرز على مائدة الكرملن. والذي يقرأ التاريخ، ويعرف تكوين جمال عبد الناصر يدرك تماما أن اليأس قد بلغ مداه. وأنه من موقع اليأس والضيق بكل شئ قد أعلن الذي أعلنه... فأفزع الروس. واضطرهم إلى أن يتقدموا بالمساعدة فوراً. ثم أن يراجعوا أنفسهم بعد ذلك ويعاودوا لعبة مد اليد وسحبها.. ثم مدها .. والتسخين والتبريد.. ثم معاودة التسخين والتبريد وذكرت وكما سوف نرى بعد ذلك...

ولما وافقوا على أن يبعثوا لمصر بالأطقم السوفيتية، علقوا ذلك على شرط. فقال لهم جمال عبد الناصر: أقبل الشرط!

قالوا: أن تتولوا بناء قواعد صواريخ سام 3. قال لهم: موافق فورا

وهذا الشرط تقدم به السوفيت ظنا أنهم سوف يضعون أمامنا مشكلة.. أو عقبة... ونسوا أننا قد بنينا السد العالي... أو أن المصريين أبناء السبعة آلاف سنة قد بنوا الأهرام... ولكن من عادة الروس إذا أعطوا أن يجعلوا ذلك شيئا صعبا .. أي من الصعب أن يوافقوا على العطاء.. ومن الصعب أن يتقدموا بالعطاء. ومن الصعب أن يستمروا في ذلك.. وأصعب عليهم أن يستعجلهم أحد..فلم يكن – إذاً– هذا الشرط الذي طلبوه أمرا صعباً.

ثم تقدموا بشرط آخر هو: إذا نحن أكملنا بناء قاعدة أو موقع، فإن السوفيت سوف يرسلون الأطقم فوراً.

ومن الإنصاف أن أقول أنهم فعلوا ذلك، فلا يكاد الموقع يتم إنشاؤه، ونبلغهم بذلك حتى تجيء الأطقم فورا. هذه حقيقة نذكرها لهم. وكان الروس يتصورون أن بناء أي موقع سوف يستغرق ثمانية أشهر، أي بالضبط الوقت الذي يعادل فترة تدريب أبنائنا في روسيا. ووقتها يحلها ربنا.. أي وقتها سوف يفكر الروس مرة أخرى إن كانوا سيبعثون بالأطقم أو سيعيدون إلينا أبناءنا المدربين...

ومن العدل أن نقول إن هذه المواقع التي تم إنشاؤها قد توالت الواحد بعد الآخر. فقد استطاعت الهيئات المدنية والمعمارية أن تنجز ذلك العمل العظيم. فلقد شارك المقاولون العرب وشركة حسن علام وغيرها من شركات الإنشاءات المصرية الممتازة في بناء هذه المواقع. وبدأ حشد هذه الشركات من أول فبراير ودفعنا مليون جنيه في اليوم لمدة أربعين يوما.

ويوم 15 مارس كان أول موقع في السلسلة بالإسكندرية وقبل أن يتم اخبرنا الروس بذلك، وفعلا أرسل الروس الصاروخ سام 3 ومعه الطاقم السوفيتي. وقد قام على بناء المواقع مهندسون وعمال مصريون، ومما يشرفنا إن نقول أن خبيرا سوفيتيا لم يشارك لا في التصميم ولا في البناء. هذه حقيقة.

وتناثرت قواعد صواريخ سام 3 حول القاهرة والإسكندرية وأسوان. وكانت هذه المواقع تتم بفارق يوم أو يومين.. وكان الروس يبعثون بالأطقم. وكان نشاطا عظيما هائلا. كل شيء يتم بسرعة. وفي 15 مارس عرف العالم كله: الروس وصولوا .. أي أن صواريخ سام التي

تصيب الطيران المنخفض قد ركبت. وفي انتظار أية طائرة إسرائيلية ... ومنذ ذلك اليوم لـــم يعد الطيران الإسرائيلي يدخل إلى عمق مصر...

وإذا التفتنا إلى حالتنا العامة أقول أنها تحسنت فجمال عبد الناصر قد وعدوه بأســلحة الردع ووعدوه بطائرات الردع التي تحمل الصاروخ إلى مدى 150 ميلا، أي تستطيع وهـــي على أرض مصر أن تضرب الأعماق الإسرائيلية.. ووعدوه بالأطقم السوفيتية، ونفــذوا هــذا الوعد...

وقد حدث يوم سفر جمال عبد الناصر إلى موسكو أن أغارت الطــائرات الإســرائيلية على جزيرة صخرية اسمها شدوان. ونزلوا عليها وأصدرت أوامري بضرب الجزيرة الصخرية بالقنابل الثقيلة حتى هرب منها اليهود. وكان ذلك يوما مشهودا. بل إن أحد الضباط الشجعان قد استدرج اليهود إلى مخبأ في الجزيرة. وقد أوهمهم بأنه سيساعدهم على أن يستسلم بقية الجنود المصريين ثم أطلق عليهم الرصاص فقتلهم فقتلوه. ولم أنس هذا القرار ولا ذلك النصر العظيم وأصدرت قرارا بعمل نيشان يحمل اسم شدوان. ولو عدت مرة أخرى لوصف حالة جمال عبد الناصر عند عودته من موسكو مريضا لوجدت معنوياته في السماء. رغم إرهاق الرحلة ذهابا وايابا ورغم الصعوبات التي واجهها ولكن النتيجة كانت عظيمة.. ولم يكن أمامه إلا أن ينتظر نهاية يناير وفبراير ومارس.. ولم يصل رد من السوفيت ولا جاءت طائرة الردع ولا شـــيء. وعلى جمال عبد الناصر أن " يتوافق " نفسيا– أي يصبر نفسه بنفسه، وأن يصالح نفسه علـــى نفسه. ويتجرع هذا الصبر المرير ويتذوقه ويعتاد عليه.

ولم تصل رسائل تفيد أن شيئاً في الطريق إلينا، أو سوف يكون. لا شيء!

وكانت عند الروس حجة هي أن هذه الطيارة ذات الصواريخ بعيدة المدى تحتاج إلى أن يتدرب عليها الطيارون ثمانية أشهر على الأقل.

وهذا الكلمات تتوالى بسرعة. ولكن الوقت لم يكن يمضي بهذه السرعة ولا بهذه الخفة. ليت ذلك كان ممكنا. ولكن الوقت كان ثقيلا كالجبال. وكان أثقل من الجبال على رجل مريض مثل جمال عبد الناصر كان عنده السكر والقلب ويجد مشقة في السير على قدميه وفي النوم... وزاد ذلك كله ثقلا ووجعا عندما انتهى شهر مارس. وبعد مارس جاء إبريل... وهذه معلومات أولية لأي طفل يذاكر توالي شهور السنة الميلادية. ولكن إذا كان زعيما مثل جمال عبد الناصر وعينه على أول مايو عيد العمال، فما الذي يفعله؟ وما الذي يراه أمامه، وما الذي سوف يقوله؟

إذا واجهته الناس وانتظرت كلمته وقد استبد بالناس الخوف واليأس، وتعلق مصير الجميع بكلمة يقولها جمال عبد الناصر للمصريين وللعرب؟.

ما الذي يفعله جمال عبد الناصر وقد ذهب وانفجر هناك وهددهم وانزعجوا ووعدوا ووعدوا ووفوا ووعدوا واخلفوا. وأعطوا الأمل في الكرملين وسحبوه عند المطار وأعادوه إلى شبابه، عشرين عاما من شدة الفرح، وأضافوا إليه عشرين عاما أخرى من شدة الآسى والحزن!

ولما جاء يوم عيد العمال في شبرا البلد توجه جمال عبد الناصر بنداء إلى نيكسون – ولأول مرة– وقد كانت علاقاتنا مع أمريكا مقطوعة منذ العدوان على مصر سنة 1967. وطلب من الرئيس نيكسون صراحة أن يقول له: ما هو دوره؟ وما الذي يستطيع أن يفعله. وجمال عبد الناصر يعلم علم اليقين أن نيكسون له دور. وأنه القادر على حل المشكلة. وأراد جمال عبد الناصر أن يعرف من نيكسون موقفه من هذه القضية. ولكن جمال عبد الناصر قد أعلن بصراحة: أن نيكسون يقدر لو أراد بقى أن يعرف منه وأمام العالم كله أنه يريد أن يفعل شيئاً.

وتلقف نيكسون هذا النداء، وبعد شهر واحد أرسل روجرز. فكانت مبادرة روجرز المشهورة في شهر يونيو. ورفض جمال عبد الناصر هذه المبادرة شهرا، ثم سافر إلى الاتحاد السوفيتي. وأعلن هناك قبوله لهذه المبادرة. وقبل السفر كنت أنا قد رتبت لهذه الزيارة مع السفير السوفيتي فينوجرادوف. وهو صديق. وكانت تربطني به صلة وثيقة. وكان يتردد على بيتي كل يوم اثنين الساعة الحادية عشرة بالضبط. وأخبرت جمال عبد الناصر أن كل شيء قد أعد تماما. وهم مستعدون. وليس عليك إلا أن تذهب لتجد كل شيء في انتظارك.

ولكن بعد عودة جمال عبد الناصر قال لي: واحدة من اثنين أما أن يكون السفير السوفيتي فينوجرادوف لم يخبرهم بأي شيء، وأما أنه فعل ذلك ولم يوافقوا على أي شيء. أنا زهقت وقرفت.

وقد بقى جمال عبد الناصر في هذه الرحلة إلى موسكو أسبوعين. وتعبر كثيرا. وأسعفوه الأوكسجين. ولكن عذابه النفسي كان أقصى من عذابه الجسدي.

وعاد جمال عبد الناصر يائساً تماما...

ولابد أنه هو أيضاً قد أدار الحوار في رأسه مرة أخرى، واستعرض هذه العلاقة الطويلة المتشابكة المعقدة المتفجرة المتجمدة مع السوفيت. ومات الله يرحمه دون أن يصل فيها إلى إقناع واضح. ربما كان الشيء الذي اهتدى إليه هو أنه من الصعب أن يفهم أحد هؤلاء

السوفيت. أو الذي فهمه من سلوكهم لم يقنعه، أو لم يسترخ إليه.. فكل شيء: أقله ورد وأكثره شوك، وكل شيء عندهم مشروط أولا، ومشروط أخيرا... وإن لم يصرحوا بذلك... ومطلوب من الزعيم المصري، أي زعيم مصري وطني أن يقبل ذلك وإلا فلا...

وقد أحس جمال عبد الناصر أنه لا يستطيع أن يشارك في عزف اللحن السوفيتي... حتى لو أعطوه النوتة الموسيقية أو دربوه على العزف لأن هذا يختلف تماما مع تكوينه النفسي والعقلي ومع مبادئه الوطنية ومع صدقه وإخلاصه، وكان الرجل صادقا مع نفسه، ولم يكن شيوعيا في أية لحظة. كما أنني لست شيوعيا ولن أكون.

ويحضرني بمناسبة هذا المعنى أنني قرأت كيف يدربون الدب على الرقص.. يقولون أنهم يأتون بالدب ثم يضعونه على صفيح ساخن... وفي نفس اللحظة التي يرفع فيها الدب أرجله من لسع الصفيح الساخن يعزفون مقطوعة موسيقية... فيتعلم الدب بمرور الوقت ضبط حركة قدميه مع الموسيقى... أي أن الدب لكي يتعلم يجمع بين الألم والموسيقى... وليست حركات رجليه إلا نوعا من الألم الصامت تصاحبه الموسيقى... فالموسيقى هي تنظيم للإيقاع الأليم لهذا الحيوان...

والسوفيت عندهم عالم كبير يضعونه في قمة العلماء في علوم الحياة والعلوم الاجتماعية والسياسية أيضا هو: بافلوف .. هذا العالم بافلوف هو صاحب نظرية اسمها نظرية "الفعل المنعكس الشرطي" .. ومعناها البسيط أنه يمكن تعليم الإنسان أو الحيوان أن يفعل أي شيء إذا دربناه على ذلك.. فإذا أعطينا الكلب طعاماً– وهذا رأيه– فإن لعابه يسيل .. وإذا عزفنا قطعة موسيقية أثناء تقديم الطعام فإن الكلب يتعود على أن يسيل لعابه عند تقديم الطعام ثم عند عزف الموسيقى... دون أن تقدم الطعام.. وكذلك إذا وضعنا الدب على صفيح ولم يكن ساخنا وعزفنا له الموسيقى فإنه يحرك رجليه ويرقص ..

أروي هذه النظرية الشائعة عند الروس بمناسبة الوعود والوفاء بها وعدم الوفاء بها ثم الوعود .. وفي استطاعتك أن تستنتج بسهولة ما أردت أن أقول...

أما النتيجة فإنه كان من الصعب على جمال عبد الناصر، ومن الصعب على أنا بعد ذلك، أن نرقص مع شعبنا كله لمجرد أن تعزف الموسيقى في الكرملين!.